# مقاصد القرآن في إحياء قِيم الإنسان الحضارية

نور الدين بن مختار الخادمي*

**الملخص**

مقاصد القرآن الكريم هي أبعاده الغائية والمصحلية، وأسراره الحكمية التعليلية، وآفاقه في إقامة الحضارة وترشيد إنتاجها المادي والروحي لإسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة وفق هدي القرآن. وقد حدد البحث أربعة مقاصد تمثل أربع دوائر من القيم هي قيم حضارة الإنسان، وقيم الأصل الإنساني، وقيم الأسرة والبناء الاجتماعي، وقيم المحيط البيئي.

**الكلمات المفتاحية**: مقاصد القرآن، قيم الحضارة الإنسانية، دوائر القيم.

**The Intents of the Gracious Qur'an in Reviving Values of Human Civilization**

**Nour Al-Deen Ibn Mukhtar Al-Khadimi**

**Abstract**

The Intents of the Glorious Quran are its teleological and beneficial dimensions, its wise and explanatory mysteries, and its prospects in establishing civilization and rationalizing its material and spiritual production for the benefits of Man in this world and the hereafter within the guidance of the Qur'an. The paper identifies four intents that represent four areas of values: values of human civilization, values of human origin, values of family and social construction, and environmental values.

**Keywords**: Qur'anic intents, Values of human civilization, Areas of values.

---

* دكتوراه دولة في الفقه وأصوله، المعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، ١٩٩٧م، أستاذ التعليم العالي، ووزير سابق للشؤون الدينية في تونس. البريد الإلكتروني: alkhadmi@yahoo.fr

تم تسلم البحث بتاريخ ١٥/١٠/٢٠١٦م، وقُبل للنشر بتاريخ ١٥/٣/٢٠١٧م.

**مقدمة:**

يتنزل هذا البحث في إطار مقاصد القرآن من جهة أُولى، وقِيم الإنسان الحضارية من جهة ثانية، ضمن علاقة جدلية مفهومية فلسفية، ومساحة عملية تطبيقية بسياقها، ومآلاتها، ومقتضياتها تبعاً لذلك.

فعلى صعيد جدلية التناول المفهومي الفلسفي، يتقرر الفضاء الحضاري بُعْداً قرآنياً بمستوياته البيانية والتشريعية والإعجازية، متشابكاً مع البُعْد المقاصدي الموجَّه إلى غاية الوجود الإنساني، وغائية صنعه الحضاري العمراني؛ عمارةً للحياة الأُولى، وتعميراً للحياة الآخرة.

وعلى صعيد جدلية التناول المفهومي للبُعْد الغائي، يتقرر النَّظْمُ القرآني النصي والاستقرائي على مستوى مصالح هذا الوجود الإنساني، ووسائل ذلك، ومآلاته، وموازناته، وقواعده، وكذا مستوى مصالح الحضارة بقيمها، وإنسانيتها، وآفاقها الرحبة في بناء الإنسان الصالح، وعمارة الأرض المُسخَّرة، وتعمير الآخرة؛ ثمرةً لذلك، وحصاداً له.

وتمثل مقاصد القرآن إطاراً معرفياً ومنهجياً وسياقياً رحباً لقضايا قِيم الإنسان الحضارية؛ تقريراً لها بوجه إجمالي عام، وتدقيقاً لصيغ تحققها في الواقع، بمقتضى ما أُضيف إلى الإنسان من مسؤولية التكليف بفهم ذلك، وتأويله، وتنزيله، بحسب إمكانياته، وموانعه في الحال، وآفاقه في المآل.

وهذا الأمر يمثل نسق الجدلية القائمة المتجددة بين مقاصد القرآن من جهة وقِيم الإنسان الحضارية من جهة ثانية، على مستوى الوعي، وترتيب الفكر، وتحقيق المعنى، وتحرير المصطلح، ومحل النزاع، وموطن الاختلاف... ، وعلى مستوى التمثل في الواقع، والامتثال للمُنزل، والتحريك للمسار، والتثمير للوجود، والتعميم للمصالح والمنافع... .

يهدف البحث إلى تفعيل جدلية المقاصد القرآنية والقِيم الإنسانية، وتعظيم المشترك القائم بينهما؛ إذ يشهد هذا المشترك لذلك، ويسند القول بقيام الجدلية، وتفعيلها، والبناء عليها، بما يخدم المقاصد القرآنية والقِيم الحضارية. ويمثل الإنسان العنوان الأبرز لهذا

المشترك من حيث: طبيعته الإنسانية (حسن الخلق، الفطرة، مناط العقل...)، ووظيفته في تعزيز القِيم الحضارية (الاستقامة المتوازنة، الإنتاج المادي والروحي، التكامل الإنساني...)، وتجدُّده في تحيين المسؤولية الحضارية وتحريرها من البدع الحضارية على خلاف الإبداع الحضاري. فالبدع هي مخالفةُ حقيقة الإنسان في وجوده الأول، وطبيعته الثابتة له؛ خلقاً، وتكليفاً، وتكريماً، وتسخيراً، وتثميراً... ، وهي في ذلك اختراع لما يكون على خلافِ الإنسان؛ مراداً إلهياً، وصلاحاً حياتياً وبشرياً.

وهو ما يُلاحَظ في فلسفاتِ فكرٍ وأنماطِ عملٍ تجري في أكثر من مكان وزمان، ولعل آخرها دعاوى الجندر (النوع الاجتماعي)[1] التي تمثل ضرباً واضحاً دالّاً على ذروة التدهور في مسار الإبداع والتزيُّد على أصل الخلق وطبع الفطرة، وأساس التكليف والتكريم والتسخير والتعمير، بمقتضى التكامل بين الجنسين في إطار الخلق الإنساني الواحد، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾ (النجم: ٤٥-٤٦).

والابتداع مفهومه واسع، وآفاقه رحبة، وهو وارد في كل شيء له أصل، يأتي عليه بالإبطال، أو التشويه والتحريف؛ سواء كان هذا الأصل نصّاً شرعياً، أو خَلقاً إنسانياً، أو فطرةً قيِّمةً، أو أصلاً معتبراً معللاً بصلاحه، وانتظامه، ومعقوليته الدينية، أو الإنسانية، أو الحضارية الكونية بوجه عام.

وأمّا الإبداع فهو الابتكار بما يخدم القِيم الحضارية الإنسانية انطلاقاً من مقاصد القرآن الكريم[2] في إنسانية الإنسان، بكل ما يكون من مكوناتها ولوازمها، مثل: الفطرة،

---

[1] الجندر: اسم يطلق على الرجل والمرأة من دون تفريق بينهما، وهو بحسب الموسوعة البريطانية: "شعور الإنسان بنفسه كذكر أو أنثى بحيث لا يرتبط فيها الإنسان بخصائصه العضوية؛ ما يعني أن الهوية الجندرية ليست ثابتة بالولادة، وإنما تُؤثِّر فيها العوامل النفسية والاجتماعية." أمّا منظمة الصحة العالمية فتُعرِّفه بأنه: "المصطلح الذي يفيد استعماله في وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة بوصفها صفات مركَّبة اجتماعياً، لا علاقة لها بالاختلافات العضوية، كما يقصد به الأدوار التي صنعها المجتمع." انظر:

- مجموعة من العلماء. **سيداو.. رؤية نقدية من منظور شرعي**، الأردن: جمعية العفاف، ٢٠١١م، ص٩٧-٩٨.

[2] عرَّفها عبد الكريم الحامدي بأنها: "الغايات التي أُنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد." انظر:

- الحامدي، عبد الكريم. **مقاصد القرآن من تشريع الأحكام**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٨م ، ص٢٩.

والعقل، والفرادة الجنسية، والانتظام الجمعي، والتآلف البيئي، ومنظومة العمارة للحياة والوجود.

تتمثل أهمية البحث في تجلية مقاصد القرآن متلبسةً بقِيم الإنسان الحضارية، علماً أن هذه المقاصد بمفهومها الواسع وآفاقها البحثية والوظيفية الرحبة تمثل توجيهاً هادياً لتعزيز قِيم الإنسان الحضارية، وتكثير منافعها، وجلب خيراتها، بمقتضى الوعي والعمل والتجديد والإحياء، وبموجب تصاعد القدرات الذهنية والعملية والجهود الجماعية والمؤسسية، وأقدارٍ من التعاون والتكامل على مستوى العلوم البينية والبُنَى التكاملية، ومسارات التناغم والتناسُب على صعيد التعليم، والتدريب، والمراكمة، والمراجعة.

ونحن إذ نُؤكِّد أهمية الحراك البحثي للمقاصد القرآنية بآفاقها الرحبة ونظرها الفسيح، فإننا نُشدِّد على صلتها بالقِيم الحضارية للإنسان، ضمن نسق معرفي وإجرائي وسياقي، نعمل جميعاً على تقريره، والبناء عليه.

ولعل أدبيات البحث في هذا المجال كثيرة متنوعة متداخلة متكاملة... ، فيها أقدار من التكرير مع قلة التثمير، وهي في ذلك تَعد بتجاوز مأمول، يرتقي بالبحث المقاصدي القرآني المتلبس بالقِيم الإنسانية الحضارية إلى الأقدار المرجوة على صعيد الإضافة النوعية، والابتكار المنير، وترتيب الثمر، والأثر، وإقناع المهتمين بمشروع ذلك وإمكانياته التطبيقية والعملية. وما نتشوَّف إليه تحديداً هو تقديم الوصفات والبرامج بتحديد، وضبط، ووصل بالواقع، وربط، وتقديم الخدمة والخبرة.

## أولاً: مقصد إنسانية الإنسان، وإحياء قِيم الإنسان الحضارية

إنسانية الإنسان هي حقيقة الإنسان وجوهره، ولوازم ذلك على مستوى الخصائص والوظائف؛ فهي خلقه المراد للخالق سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ (الرحمن: ١-٣)، وهي فطرته التي خلق الله الناس عليها وجبلهم عليها، قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠)، وهي خَلْقه الأحسن، مناطُ التكريم والتكليف والمسؤولية... ، قال عز من قائل: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾

﴾ (التين: ٤)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ (الإسراء: ٧٠)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ (المدثر: ٣٨).

## ١. إنسانية الإنسان مشتركُ مقاصدِ الشرع وقِيم الحضارة:

لـمَّا كانت إنسانية الإنسان تمثل مقاصد الشرع، فإن ما جاء من نصوص ومعقول وموروث يُؤكِّد أن الإنسان خلقٌ مكرمٌ، وعاقلٌ مُكلَّفٌ، وحرٌّ مريدٌ، وفاعلٌ مُعمِّرٌ، وهو المُعبَّر عنه في علم المقاصد القرآنية بحفظ نوع الإنسان، وصلاحه، وإصلاحه؛[3] لصلاح الوجود به، وبحفظ نفسه، وعقله، ونسله، ونسبه، وعِرضه، وماله، ومتاعه، وصرف كل ما يُلحِق به الأذى في معاشه، أو العذاب في معاده.

ونصوص ذلك حافلة متضافرة متوافرة متواترة؛ ما جعلها -بمقتضى الاستقراء- ترتقي إلى مبدأ عام، وقاعدة كلية، وخصيصة كبرى، يكون من عناوينها الكبيرة "إنسانية الإنسان"، بما تنطوي عليه من معنى، وما تستلزمه من تفعيلِ وسيلةٍ، وتجديدِ نظرٍ، وتحقيقِ مناطٍ، وتكثيرِ أثرٍ وثمرٍ.

وإنسانية الإنسان هي قيمة قِيم الحضارة؛ فقد جاء في تعريف الحضارة[4] أنها الإنتاج المادي والروحي، وأنها العمران والتعمير للوجود والحياة بما ينفع الناس ويدرأ عنهم الشقاء

---

[3] يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع، استبان لنا من كليات دلائلها وجزئياتها المستقراة أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأُمة، واستدامة صلاحها بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحُه صلاحَ عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه." انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م، ص٢٠٩.

[4] عرَّفها مالك بن نبي بأنها: "مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معينٍ أن يُقدِّم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه." انظر:

- ابن نبي، مالك. **القضايا الكبرى**، بيروت-دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط٢، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٤٣.

والعناء... ومن أظهر ما يُعمَّر به الوجود حفظ وجود الإنسان، وسلامته في نفسه، وعقله، ونسله، ونسبه، وماله، وحريته، وعمله... .

وهذا يمثل المشترك الجوهري (الذي هو الإنسان) بين مقاصد القرآن المؤسسة لوجود الإنسان الكريم المعمر، بسلامة دينه ونفسه ونحوه، وقِيم الحضارة التي تسند فعل التحضُّر وإنتاج الحضارة والعمران إلى الإنسان الذي يمثل إحدى ركائز ذلك، إلى جانب ركيزة الموجودات الـمُسخَّرات (بالقوة، أو الفعل)، بناءً على ركيزة الهدي الإلهي، والتوجيه النبوي، والبيان العلمي المرشد إلى المطلوب، المراعي للمقصود، المبني على مراد الله سبحانه وتعالى.

وتردُّد إنسانية الإنسان بين مقاصد القرآن وقِيم الحضارة يمثل مشتركاً عظيماً بينهما، من حيث المضمون الإنساني التكريمي الوظيفي التعميري للوجود والحياة، ومن حيث مستلزمات الوعي والعمل والتدريب والتأهيل؛ فقد أسَّس القرآن وسائل ذلك، فضلاً عن مقاصده وغاياته، مثل: وسيلة العقل، والتسخير، والمراكمة. وبالمثل، فقد أسَّست علوم الحضارة مقولة الأدوات اللازمة والأزمان الحاوية للفعل الحضاري ومنتوجه المادي والروحي... وهذا المشترك الوسائلي على صعيد مقاصد القرآن وقِيم الحضارة يمثل قدراً عظيماً من التوافق على الإنسان، بوصفه مقصداً قرآنياً في تكريمه وتكليفه بالحضارة والعمارة، وبوسائل ذلك من حيث إمداده بالعقل، والإرادة، والحرية، والمسؤولية، والإطار الجمعي الإنساني التعاوني، والتناسُب التسخيري مع حاجياته وطلباته... ، وبوصفه قاعدة التحضُّر، ومنطلق الصنع الحضاري، والتطوير العمراني، والتجدُّد البياني والإبداع الفكري واللساني.

### ٢. إنسانية الإنسان بين المُهدِّدات والمشتركات:

تتهدد إنسانية الإنسان من حين إلى آخر بمقتضى التطورات الفكرية والاجتماعية والسياقية المنحرفة... ومن ذلك نزعات التطهير العرقي والطائفي، وسياسات الاحتلال والاضطهاد والاستبداد، وشَهوات المِلَلِ، وشُبهات النِّحَلِ، والمزايدات والتجاذبات على حساب القِيم والإنجازات... فقد تزايدت دعوات التصفية، والقتل، والتهجير، والتعذيب

على أساس الهوية، واللغة، والانتماء، والموقف، والموقع، فضلاً عن تكالُب رأس المال المحتكر والفاسد والمقامر على مقدرات كثيرة، وثروات شعوب، وحقوق فئات، وهيئات، وأيتام، وأرامل، ومعطلين، ومفقرين، وكذا دعوات الجندر، وتهديدات الأسرة، واختطاف الأُمة من جهة الطائفة والعرق والمذهب، والتخويف من الإسلام وبالإسلام، واستضعاف شعوب بأسرها، تتطلع إلى ممارسة حقها في الحرية، والكرامة، والسيادة، والاستقلال، وتقرير المصير.

ومجمل مآل ذلك هو تعطيل التنمية الحضارية والإنجاز العمراني النافع للناس جميعاً... فمُراد هذه التهديدات وآثارها أن تُفوت فُرص التنمية ومكاسب الثروة ومنافع الحضارة على هؤلاء المفقرين المضطهدين؛ أفراداً وشعوباً، دولاً وأُمماً... .

وسبل ذلك هي طمس إنسانية الإنسان بتدميره معنوياً وإرادياً قبل أن يُدمَّر بالمجاعة، والفقر، والمرض، والجهل، والتعذيب، والقتل، وكذا بإشغاله بالهوامش، والتفاصيل المتشعبة، وفُتَاتِ الحضارة، وقشور العمران، وبتشكيكه في تميُّزه القرآني المقاصدي، وإبداعه القِيمي الحضاري.

فلا عجب إذن أن يتعاظم الدور التحريفي الخطير لرسالة القرآن في بناء الحضارة والعمران؛ بإفراغه من محتواه الحضاري الإنساني، وتحييد المسلمين والناس عن علومه وقِيمه وأهليته في العالم، وجدارته للإنسانية في تقدُّمها وأمنها وعدالتها... وحملهم على تناوله بما هو دون ذلك، مثل: حفظه من دون فهمه، وتدبُّر نظرياته وعلومه والتبرُّك به في زوايا الحياة ومناسبات الميلاد والوفاة... وبالتوازي مع هذا نلحظ توجُّه أفراد ومؤسسات يعملون على خلخلة رسالة القرآن، وإرادة التشكيك فيه؛ سنداً، ومتناً، وحَيَاً مباركاً، وأثراً باقياً. ويُعرف جزء من هذا التحريف الخطير بأعمال تأويلية قرآنية ممنهجة تستهدف قداسة القرآن ومقاصده الحقيقية في حفظ الإنسان، وبناء العمران، وطاعة الرحمن سبحانه.[٥]

---

[٥] وذلك بنفي تعالي النص القرآني أو التقليل منه، واعتباره مثل أي نص آخر يقبل النظر، والتقييد، والرد، والترك، والإضافة، والتغيير... ويراد به اعتبار هذا النص مسلوب القداسة التي تورث في أتباعه وأنصاره معاني التقيد

## ٣. فشل مُهدِّدات إنسانية الإنسان بتعزيز المشتركات:

بوسع القائمين على مقاصد القرآن (نظراً، وعملاً)، وعلى قِيم الحضارة (فكراً، وإنتاجاً) تعزيز المشتركات بينهم؛ بالمضامين، والمصطلحات، والوسائل، والأساليب، والصيغ، والآليات، وبتعزيز الإرادة الحرة، والإدارة الراشدة؛ بُغية مواجهة ما يُهدِّد إنسانية الإنسان؛ فطرةً، وعقلاً، وكرامةً، وحريةً، وانتظاماً مثمراً، ونفعاً عاماً، وتآلفاً مع البيئة، واستئناساً بالطبيعة، وسعادةً بالحياة، وفوزاً بالآخرة... .

وهو الأمر الذي يستوجب أقداراً عاليةً من التفاهمات على صعيد التكامل المعرفي والبُنَى التكاملية، وملاحظة التداخل في مجال التخصصات والوظائف والأدوار البحثية والعملية والإنتاجية، وتجديد الروابط المؤسسية والإدارية، وتعزيز الروافد المجتمعية والثقافية والتعليمة والتوعوية، بما يحفظ إنسانية الإنسان والأوطان والعمران، وبما يمثل الحواضن الاجتماعية والعقلية والأسرية الرافضة لأي تهديد للمُكوِّن الإنساني، مثل الأسرة التي تتعرَّض لتهديد خطير يُعرَف بالجندر (النوع الاجتماعي) الذي سيأتي على أصل الأسرة الفطرية الطبيعية بالإبطال؛ وذلك أن الله تعالى خلق الناس على الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠). قال البيضاوي: "فطرة الله: خِلقته التي فطر الناس عليها: خلقهم عليها، وهي قَبولهم للحق، وتمكُّنهم من إدراكه، أو ملة الإسلام؛ فإنهم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليه أدَّى بهم إليها."[٦] وذهب ابن عطية إلى أن الفطرة هي: "الخِلْقة والهيئة في نفس الطفل التي هي مُعَدَّةٌ ومُهيَّأَةٌ لأن يُميِّز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه."[٧]

بأحكامه، والاعتزاز به، والدفاع عنه، والانتصار له، والدعوة إلى إرسائه وتفعيله، بناءً على تعالي النص وقداسته ومرجعيته. انظر:

- الخادمي، نور الدين. **القراءة التأويلية للقرآن الكريم بين التبديد والتجديد**، دمشق: دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص١٣٥. وبعض القُرَّاء المحدثين يذهبون مذهباً آخرَ في قضية تعالي النص القرآني؛ هو نفي هذا التعالي عن النصوص القرآنية التشريعية الحاوية مضموناً تشريعياً في مجال الأسرة والاقتصاد والسياسة والحضارة، وعدم نفيه عن نصوص الإيمان والعقيدة والعبادة. انظر:
- التواتي، مصطفى. **قراءة النص الدينى وآلياته فى الفكر الأصولي المعاصر**، د.ت، ص١٠٤-١٠٥.

[٦] البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم.

[٧] ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٣٣٦، تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم.

ومن المقترحات في هذا الصدد، بحث روابط العلم والمنهج والإجراء بين مقاصد القرآن وقِيم الحضارة في إنسانية الإنسان؛ طبيعةً، ووظيفةً، وابتلاءً، وحراكاً في واقع الحياة وتحديات الوجود، وصراعاً مع دعوات التهديد والتدمير.

**ثانياً: مقصد فرادة الإنسان الجنسية، وإحياء قِيم الإنسان الحضارية**

الفرادة مصطلح مقترح يدل على معنى تفرُّد الإنسان بجنسه الذكري أو الأنثوي، بمقتضى الخلق الإلهي والفطرة الإنسانية، وليس بمُؤثِّرات الواقع أو ميول الذات... وهو يأتي مُؤكِّداً مراد الخالق في خلقه، ومقاصد الدين كله، وما استقرت عليه الإنسانية على مَرِّ العصور منذ الخلق الأول الذي تقررت فيه ذكورة آدم وأنوثة حواء، ثم تفرَّعت عنه سائر البشرية على وَفق ذلك بانتظام، واطّراد، ومعقولية، ونفع.

وهو يأتي ردّاً على المصطلح الغريب العجيب (الجندر= النوع الاجتماعي) الذي لم يُعرَّف -حتى الآن- تعريفاً واضحاً دقيقاً مُركَّزاً، وإنما تناولته بعض الدراسات والمواقف ببيانات مفادها قيام نوع من الإنسان، لا هو بالذكر، ولا هو بالأنثى، وإنما هو نوع ثالث سُمِّي النوع الاجتماعي، وسُمِّي أيضاً الجندر.

وهذا النوع من الإنسان لا يقف جنسه عند هذا الحد (لا ذكر، ولا أنثى)، وإنما يتعداه لتقرير وضع جديد تتحدد بموجبه الوظائف في المجتمع والأدوار في الحياة، على خلاف الوظائف المبنية على طبيعته (الجنس، والفطرة، والأعضاء التناسلية، والهرمونات، والاستعدادات الخلقية، وتكامل المصالح، والحياة بين المرأة والرجل)، وعلى خلاف الأسرة الفطرية الطبيعية الشرعية الإنسانية، وبصدام صريح ومعارضة مفضوحة للأديان جميعها، وكذلك لأعراف الناس وسائر الدول وخصوصيات الشعوب.

ومفاد هذا التحريف الخطير لمفهوم الإنسان والأسرة هو الوصول به إلى ما يُعرَف باسم الإنسان الجندري، والأسرة الجندرية، والمجتمع الجندري، الذي يمثل جانباً من ذروة التدمير، والفساد، والعبث، والعدم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

### ١. حقيقة الجندر وأسسه الهاوية:[٨]

ترتكز دعوى الجندر على أساسين اثنين:

– هوية الإنسان الجنسية التي تتحدد بناءً على ميوله الذاتية، وأعراف المجتمع، لا أصل الخلق والفطرة، ومقاصد القرآن، وقِيم الحضارة. ومفاد هذه التحديدات للإنسان الحرية في أن يختار جنسه الذي يريد، من دون أن يظل على جنسه الذي خُلِق عليه وجُبِل. فالذي يُولَد ذكراً يُمكِنه أن يتحول إلى أنثى إذا أراد ذلك، أو عند عدم وجود رغبته في ذكورته التي وَجَدَ نفسه عليها، والتي تولَد أنثى لها أيضاً أن تختار جنس الذكورة لتُوَدِّع صفة الأنوثة التي لا تقتنع بها. أمَّا ما يُبنى على ذلك فهو الوظائف، والأدوار المجتمعية المتعلقة بالأسرة والأبناء والبنات، والروابط بين الناس.

– وظائف الإنسان وأدواره التي تتحدد بناءً على هويته الجنسية الجندرية، لا هويته الجنسية الخلقية الطبيعية. فللذكر والأنثى أدوار جديدة (ليست هي الأدوار النمطية)[٩] على صعيد الزواج، والعلاقة بالفروع، وروابط المجتمع، وفضائل القِيم، ومحكمات الدين...

وتعد الأسرة الفطرية الشرعية في نظر مروجي فكرة الجندر أسرة نمطية، لم تعد صالحة في العصر الحالي؛ لأنها تقوم على الثنائية الجنسية الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها، ولأنها "تصادم رغبات الناس في هوياتهم الجنسية وأدوارهم الاجتماعية بناءً على ذلك".

وقد لزم من ذلك إمكان قيام الأسرة الجندرية على رابطة بين اثنين يختلفان في الجنس أو يتماثلان، وعلى رابطة حرة لا وجود فيها للدين والقِيم... مثل رابطة الزنا والصاحب... خارج إطار الزواج... وإمكان إدخال فروع من خارج إطار الزواج والأسرة، بطريق التبني والزنا... ولزم من ذلك أيضاً إبطال كل ما يترتب على الأسرة الفطرية

[٨] إن دعوة أنصار النوع الاجتماعي إلى المساواة بين الرجل والمرأة على أساس النوع الاجتماعي تقضي حتماً التماثل بين الجنسين، وفي ذلك تدمير لكيان الأسرة، وتقويض لدعائم صرح المجتمع، ويظهر ذلك في مظاهر عدَّة، أبرزها: ضرب مؤسسة الزواج... وفتح الباب على مصراعيه لممارسة الزنا واللواط وسائر أنواع الفجور، واعتبار الشذوذ علاقة طبيعية وتشريع القوانين التي تبيحه. انظر:

– الشواشي، سليمان. "دلالات مصطلح النوع الاجتماعي"، ضمن الندوة الصحفية التي نظمتها جمعية هيئة مشايخ تونس وجمعية الأئمة من أجل الاعتدال ونبذ التطرف، تونس، فبراير ٢٠١٧.

[٩] سمَّاها هؤلاء بالأدوار النمطية للإيحاء بضرورة تجاوزها، واستبدال الأدوار الجندرية المخيفة بها.

الشرعية من مقاصد المودة والرحمة والسكينة، بمقتضى الميل المتبادل بين الزوجين، والعشرة بالمعروف، والعدل، والإحسان، والإكرام، وبموجب التعاون والتعارف والتآلف والتضامن في عمارة الأرض، وتزيين الحياة، وإقامة الحضارة على أسسها الطبيعية والإنسانية والمقاصدية... ولزم كذلك تعطيل أحكام كثيرة، مثل: حكم القوامة، والمهر، والعِدَّة، والمواريث، وغير ذلك.

## ٢. أوجه مقاصدية القرآن في الفرادة الجنسية:

أ. مقاصد مراد الله تعالى في الخلق الإنساني: فقد أراد الله تعالى خلق الإنسان خلقاً مميزاً مكرماً متنوعاً معمراً، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ (الرحمن: ٣-٤)، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ (التين: ٤).

ب. مقصد مراد الله تعالى في خلق الإنسان ذكراً وأنثى: فقد أراد سبحانه تنويع خلق الإنسان إلى خلقٍ ذكري، وآخر أنثوي، دالّاً بذلك على وحدانيته، وتعدُّد مخلوقاته، وتكامل خلقه ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ (النجم: ٤٥).

ت. مقصد التكامل والتعمير والمسؤولية: تَرد الثنائية الجنسية في إطار تكامل الوجود الإنساني ولوازم ذلك من حيث جمال الوجود، وتبادل الميول، وثراء العمارة، ومن حيث التناسُب مع الأدوار الوظيفية، والقدرات على ذلك؛ عاطفياً، وعضوياً، وجمعياً، ومن حيث تأمين المسار الإنساني، ودرء ما قد يؤذن بخرابه وفساده وفوات مصالحه.

ث. مقصد الابتلاء والجزاء: هو المقصد الذي يُعنى بابتلاء الوجود الإنساني واختباره في مدى أهليته للتعمير، وقدراته على الأداء الذي يراعي التكامل بين الجنسين، وتناسُب أدواره، واستمرار أدائه، وتعظيم ثماره.

ولعل الطرح الفكري الجدلي لمقولة الجندر يمثل ضرباً ابتلائياً عظيماً في تقرير ما يمثل صموداً أمام تحدياته الفلسفية والعملية، وثباتاً للانتصار لقِيم الفطرة، وأحكام الدين، ومصالح الناس، وعمارة الأرض، بما يُقدِّم من المقاربات والبدائل في الفكر، والعمل، والمجتمع، والدولة، والقانون، والدستور من أجل ذلك.

**ثالثاً: مقصد الانتظام البشري الجمعي، وإحياء قِيم الإنسان الحضارية**

يمثل الانتظام الجمعي مقصداً قرآنياً معتبراً، وقيمةً حضاريةً كبرى؛ فهو مقصد قرآني معتبر بمقتضى كونه مراداً لله سبحانه من جهة وضعه الأرض للأنام ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ (الرحمن: ١٠)، مستقراً لهم، ومتاعاً إلى حين ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ (الأعراف: ٢٤)، ومن جهة دعوتهم إلى تعميرها واستثمارها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، وهي تمثل -من جهات أُخرى- مراداً له سبحانه من حيث أمره بإقامة الانتظام التعبدي على غرار انتظام الصلوات والجمعات والحج والعمرة... ، والانتظام الأسري العشائري الاجتماعي... ، وغير ذلك ممَّا يمثل صوراً من الانتظامات، مثل: الانتظام المسجدي، والوطني، والدولي، والأُممي، والإنساني.

وهو أيضاً مقصد قرآني معتبر بوصفه مصلحةً للناس في إطار انتظام معاشهم بمستويات ذلك وسياقاته، مثل: مستوى الانتظام التجاري والزراعي والعمراني بوجه عام، ومستوى الانتظام التعليمي والثقافي والمجتمعي، بما يسدد تلك المصلحة بمراتبها الضرورية والحاجية والتحسينية. فمصالح الانتظام واضحة معلومة، ومهمة لازمة، وهي تتحقق بمستوياتها ومقاديرها بحسب تفاعل الناس معها، وقدرتهم على إحكام سير هذا الانتظام، وتحقيق ثماره، وتقدير عواقبه.

وهو أيضاً مقصد قرآني معتبر بوصفه إطاراً من الوسائل التي تفضي إلى مقاصدها؛ إذ يبدو أشبه بما يؤدي إلى غاياته وتحقيق مصالحه بالنسبة إلى المنتظمين، ومثاله انتظام التعبد، الذي يُقصَد به آثاره المترتبة عليه؛ أجراً ثابتاً، وأثراً باقياً، ونفعاً مشروعاً في عاجل الأمر وآجله. وهو بهذا يجمع بين المقصد والوسيلة في المقام الواحد، فيكون الانتظام مقصداً في حدِّ ذاته، مثل دخوله في مراد الله وأمره، فيكون بهذا الاعتبار مقصوداً وغايةً على أساس أن الدخول في مراد الله وامتثال أمره معدود من مقاصد الشارع، ومقاصد القرآن جزء منه. ويكون هذا الانتظام وسيلة إلى ذلك المقصود بوصفه طريقاً إليه، يأخذ حكمه حكم ذلك المقصود.

وهو أيضاً مقصد قرآني معتبر بوصفه متلبساً بقضايا المقاصد ومعانيها، مثل قضية مآلات الأفعال التي تعد مقصوداً معتبراً شرعاً كما قال الشاطبي،[١٠] ومقصوداً قرآنياً دلَّت عليه شواهده المتوافرة المتضافرة، مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨) الذي يدل على منع سَبِّ المشركين لكيلا يسبُّوا الله عدْواً بغير علم، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣) الذي يدل على أن انتظام الشعوب والقبائل وسيلة للتعارف بينهم؛ فكون التعارف مآلاً إلى هذا الانتظام، يلزم منه إحكام سير الانتظام وانضباطه بما يؤدي إلى حصول التعارف، وتحصيل المعارف. وهو ما يفيد بخلوه من الموانع والعوارض التي تصرفه عن مراده في التعارف إلى مآلات التجاهل والتناكر والتباغض والتباعد، وقوله عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣) الذي يدل على الانتظام المعصوم بحبل الله الذي يؤدي إلى مآلاته الاتفاقية والتعاونية، وليس إلى التفرق المذموم الذي جاء في النص القرآني المذكور مقابلاً للانتظام المعصوم على سبيل الحضارة والمعارضة؛ فانتفاء هذا الانتظام ثبات للتفرق، والعكس صحيح، وهو ما يشير إلى مراعاة مآلات الانتظام المعصوم بنفي التفرق والتباعد، وتقرير الاجتماع والتقارب.

ومُدرَك هذا المعنى مراعاة مآلات الفعل الانتظامي بعصمة وحكمة، ونفي ما يؤدي إلى التفرق والانقسام من أفعال الاعتصام بغير حبل الله الدال على مراده وأمره ومقصوده وتوجيهه بوجه عام.

ومن القضايا أيضاً قضية الجمع بين مبنى الانتظام ومعناه؛ فالمبنى هو أحواله الظاهرة وصوره الخارجية التي يُعبِّر بها عنه. أمَّا المعنى فهو ماهيته، وموضوعه، وفائدته، وأثره في البناء الإنساني والعمراني، وتحقيق مراد الله ومصلحة المخلوق.

[١٠] جاء في الموافقات: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلَّفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعاً لمصلحة فيه تُستجلَب، أو لمفسدة تُدرأ... وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جارٍ على مقاصد الشريعة." انظر:

- الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، لبنان: دار المعرفة، د.ت، ص١٩٤-١٩٥.

والقرآن يقرر حقيقة الانتظام مبنًى ومعنًى، صوراً وأشكالاً وأحوالاً ظاهرةً، وجوهراً عميقاً، وقصداً خالصاً، ومضموناً ثرياً من الأحكام والمقاصد والقِيم، تُؤسِّس لفعلٍ انتظامي حقيقي مثمر مناسب للدين والعقل والفطرة، جارٍ على موضوعه الذي لأجله أُقيم.

وإشارات هذا في ثنايا القرآن الكريم متوافرة متضافرة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ (الصف: ٤). فالوصف بالصف إشارة إلى الشكل الخارجي لانتظام المقاتلين المدافعين عن الأوطان والأعراض والسيادة والاستقلال، الذين يصدون المعتدين المحتلين المحاربين. والتشبيه بالبنيان المرصوص[١١] إشارة إلى حقيقة الصف وجوهر هذا الشكل الداخلي من حيث: التماسك والتراص، وانعدام الفجوات والثغرات، والبروز بصورة واحدة، وكتلة موحدة، ورؤية مُحدَّدة مُحقَّقة.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبُّر... والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض، والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات."[١٢]

فهذا الشكل الانتظامي الوارد في نص قوله المذكور إنما هو انتظام في الظاهر والشكل الخارجي، وانتظام في الباطن والحقيقة المركوزة في المبنى والوعاء؛ فهو جمعٌ للمبنى والمعنى معاً، ونفيٌ لأحدهما على حساب الآخر.

وهو ما يُعبِّر عن مقصد القرآن في الانتظام في هذا الشاهد، وفي سائر أمثاله ممَّا ورد في القرآن الكريم، ممَّا هو في موضوعه ومقصوده، مثل الشاهد الذي ذكرناه آنفاً: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

---

[١١] قال الطبري: "وقوله: (كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) يقول: يقاتلون في سبيل الله صفاً مصطفاً، كأنهم في اصطفافهم هنالك حيطانٌ مبنيَّةٌ، قد رُصَّ فأُحْكِمَ وأُتْقِنَ، فلا يغادرُ منه شيئاً." انظر:

- الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج٧، ص٢٨٥.

[١٢] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، تفسير الآية ٤ من سورة الصف.

ومن القضايا المقاصدية التي تناولها القرآن الكريم في موضوع الانتظام الجمعي، قضية معقولية معنى الانتظام الجمعي، وقابليته للتفسير المصلحي، والتعليل الحِكْمي، والاجتهاد المقاصدي بشروطه وآفاقه ومجالاته... فالانتظام فعل للمُكلَّفين والناس أجمعين، وهو مركَّب معقد، يجري في مجالات الحياة كلها؛ في: الأسرة والتعبد، والأعمال والأموال، والسياسة والإدارة، والفنون والرياضة، والحرب والسلم، والفرح والترح... .

وما دام أنه فعل، فإنه يُناط بأحكامه ومقاصده من جهة أُولى، وهو أمر متقرر عند العلماء من الفقهاء والأصوليين، الذين تناولوا موضوع الفقه الإسلامي والتكليف الشرعي بوصفه فعل الإنسان وتصرفه؛ قولاً، وسلوكاً، وموقفاً. ومن جهة ثانية، فإنه يُناط بمعناه وبما وراءه. وهذا الانتظام نوعان من حيث المعنى:

– انتظام معقول المعنى، وحِكمه ظاهرة، وتفسيره بَيِّن، ويقبل التعليل، والقياس عليه، والإلحاق به.

– انتظام غير معقول المعنى، وهو المعروف بالتعبدي الذي لا تبدو حِكمه ظاهرة، ولا يُعلَّل بعلل غائية تفصيلية، ولا يُقاس عليه، ولا تتغير كيفياته ومقاديره... بتغير الزمان والمكان والأحوال والأعيان.

وهذا ملحوظ بكثرة وافرة في مجال التعبدات والمقدرات، على غرار الصلاة، والحج، والكفّارة، والعِدَّة.

ويُلاحَظ الانتظام معقول المعنى في مجالات الاجتماع الإنساني والعمران البشري، ممَّا لا تقدير له في الشرع ولا ضبط؛ في: الكيفيات، والمقادير، والآجال، والبقاع، والأحوال، والأعيان. ولذلك كان النظر القرآني المقاصدي في هذا الانتظام نظراً فسيحاً في مجاله ومكانه وزمانه، فلم يُقيِّده بتفاصيل ذلك وصيغه المحصورة، وإنما أطلقه، وأورد كبرياته في المبادئ والقِيم، مثل: قيمة الطيبات بإطلاقها إلا ما استثناه الدليل وخصَّصه، وقيمة مبدأ العمارة والزراعة والتجارة والصناعة.

ويمثل الانتظام الجمعي قيمة حضارية كبرى بوصفه نسقاً في التصوُّر والتعرُّف، وإطاراً للإنتاج المادي والروحي؛ فهو نَظْم فكري وفلسفي يُحدِّد الموقف من الوجود الإنساني، الذي يقوم على انتظام البشر انتظاماً واعياً فاعلاً مثمراً، ويُقدِّم الأنموذج الحياتي في عمارة الأرض، وتحصيل ثمراتها المادية والروحية، وإنتاج علومها وفنونها ومرافقها في المجالات جميعاً، وإدارة ذلك بمهنيةٍ عالية تكون ثمرة للوعي والتدريب والتكوين والبحث والاكتشاف، وأخلاقيةٍ أصيلة وآداب رفيعة تمثل المعيار الخلقي الإنساني للقِيم الحضارية، وتجسد فضائل الرفق والتراحم بين البشر جميعاً.

ولأن هذا الانتظام الجمعي يمثل قيمة حضارية إنسانية عالية؛ فإنه لا ينفصل عن قِيم الحضارة الأُخرى، مثل قيمة الشورى التي يعد من لوازمها هذا الانتظام نفسه؛ فلا قيام للشورى بمنأى عن الانتظام والوئام؛ إذ إنها تبادل للفكر، وتداول للرأي، وتوارد للقِيم، وتجاذب للمصالح... ، وهي ثمرة انتظام المفاهيم في الأذهان، مثل انتظام الصفوف والكيانات في الأعيان. فالشورى (هي المقصد الشرعي والوسيلة المعتبرة إليه، والقيمة الحضارية والفضيلة الإنسانية) دلالةُ انتظامِ الجمع البشري بمجاله وسياقه وأحواله، مثل: الجمع التخصصي والمهني، وجمع العلماء والنخبة والجماهير والهيئات... ، وموضع الصلاح، ومظنة المصلحة، ومناط الاجتهاد الموفق والنظر المدقق. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى: ٣٨).[١٣]

فخطابه تعالى بصيغة الجمع (أي بصيغة فعل الجماعة) يشير إلى الفعل الواعي الذي يمثل نسق الانتظام في الأفهام والأفعال، وما يترتب عليه من أنساق الإنتاج ونظم الإنجاز.

[١٣] قال القرطبي: "(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)؛ أي يتشاورون في الأمور. والشورى مصدر شاورته، مثل: البشرى، والذكرى، ونحوه. فكانت الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه؛ فمدحهم الله تعالى به؛ قاله النقاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون؛ فمُدِحوا باتفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قَطُّ إلا هُدُوا لأرشَدِ أمورهم." انظر:

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج١٨، ص٤٨٧. وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام، أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان، وأيُّ أمر أعظم من أمر الإيمان." انظر:

- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٥، ص١١٢.

وهو يشير أيضاً إلى جمع المجالات الدالة على جمع أشكال الانتظامات؛ فقد جاء في النص مجال الاستجابة، ومجال إقامة الصلاة، ومجال إقامة الشورى، ومجال الإنفاق ممَّا هو رزق ومحصول، وهو ما يشير إلى انتظام جمع الاستجابة، بما يمثله من انتظام الفهم والتلقي والتمثل والامتثال، وانتظام جمع إقامة الصلاة، بما يمثله من الانتظام التعبدي المقدر بأقداره وأزمانه وأماراته، وانتظام جمع الشورى، بما يمثله من انتظام إدارة تبادل الرأي وتقليبه واستثماره في انتظام محاصيله ومستخلصاته من المواقف والمواقع[١٤]... وانتظام جمع الإنفاق ممَّا رُزِق الناس من الأموال، والعلوم، والقِيم، والمكاسب، والمواهب.

فهذه الصور من الانتظام، بتعدُّد مجالاتها، تشير إلى تعدُّد مستويات الانتظام الجمعي، بحسب إمكانيات أصحابها، وحاجيات الناس، وسياقات الأحوال، وتشير أيضاً إلى أن الانتظام ليس بوجه واحد أو بمجال معين، وإنما هو بنظم واسع متكامل، تنتظم صوره، وتتكاتف مجالاته في اتجاه الانتظام العام على صعيد الإنسانية كلها، أو الأُمة الإسلامية نفسها، أو الدولة والإقليم ونحوه.

وفي كل المجالات والمسارات، فلا يليق، بل لا يجوز في هدي القرآن ومقاصده، إحداث الانفصام النكد بين المجالات القرآنية التي تقرر فيها لزوم الانتظام؛ سواء ما ذكر في سورة الشورى، أو ما ذكر في سائر مواضع الانتظام، مثل: الانتظام التعبدي، والأسري، والمالي، والبيئي، والقانوني، والدولي، ونحو ذلك.

وقد آلت أحوال كثير من المسلمين إلى تضييع انتظامات جمعية عدَّة، مثل: الانتظام الشوري الحواري، والانتظام المالي الإنفاقي التكافلي، والانتظام الدعوي الفكري التربوي، فوقعوا في الانخرام الجمعي على تلك المستويات وغيرها، وفي حلول الفردانية والارتجالية والعفوية، وفي طروء الرداءة والسفاهة في أحيان أُخرى ومواضع عدَّة؛ ففي سورة الشورى -عند تلاوتها مثلاً- غُيِّبت الشورى، وعُطِّل نَظْمها ونظامها وانتظامها، وقُلِّصت

[١٤] قال ابن العربي: "الشُّورى أُلفةٌ للجماعة، ومِسْبَارٌ للعقول، وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قَطُّ إلا هُدُوا." انظر:
- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٧.

انتظامات الصلاة؛ إذ قَلَّ عدد المصلين مقارنةً بعدد المسلمين، وضعف الأثر بالرغم من كثرة الركوع والسجود والذكر والشكر.

وقد انحصر الإنفاق من الأرزاق في عطايا مالٍ وأعيانٍ، مع ضعف الأثر وقِلَّة الثمر، من دون أن يشمل الإنفاق ما وهبه الله عباده من الأموال، والعلوم، والفنون، والمواهب، والمكاسب.

وهذه الضروب من الانخرام والانفصام دليل على فوات الانتظام الجمعي في مجاله وزمانه وأعيانه؛ كلياً، أو جزئياً.

**- الانتظام الجمعي وصلٌ بين مقاصد القرآن وقِيم الحضارة:**

الانتظام الجمعي هو جمعٌ بين كونه مقصداً قرآنياً معتبراً وقيمةً كبرى من قِيم الحضارة؛ فأحدهما موصول بالآخر وصلاً ضمنياً ومنهجياً وسياقياً بناءً على التداخل المعرفي بينهما، والتلاقي في المقاصد والوسائل والمعاني والمعقولات، والتوافق المعياري الخلقي، وميزان الفضائل وسُلَّم الأولويات والمآلات والموازنات.

وهذا يجعل تحقيق ذلك في غاية الأهمية النظرية البحثية، والعملية الوظيفية، وفي منتهى غرس الأمل واستعادة البناء الحضاري والعمراني انطلاقاً من مقاصد القرآن المقدرة لذلك البناء، بوصفها الإطار الغائي القرآني العالي بكبريات معانيه في المصالح والوسائل والمآلات، وكبريات قِيمه في الحضارة والإنسان والوجود، مثل: قيمة الانتظام بوعي وفعل وتعاون ورفق، وقيمة الشورى بوصفها ضرباً انتظامياً تداولياً حوارياً، يفضي إلى اليقين أو ما في حكمه، ويورث الطمأنينة والتناغم، ولا يؤدي إلى الريبة والتنازع، وقيمة التنمية بتزكية، والكرامة بتكليف، والحرية بمسؤولية.

والتداخل ملحوظ -على نحوٍ لافت- بين مقاصد القرآن وقِيم الحضارة في قيمة الانتظام الجمعي، بوصفه قيمةً جليلةً من قِيم التحضُّر الإنساني والرقي في مجال العمران، وبوصفه مقصداً قرآنياً دلَّت عليه منطوقات ومفهومات ضمن نسقٍ استقرائي يمثل حكماً

كلياً من أحكام القرآن، واجبة الإيمان، ولازمة الاعتبار، وجديرة بالاستثمار، والبناء عليها.

وما ذكرناه -بشيء من التفصيل فيما سبق- يُؤيِّد هذا التداخل والتوافق بين كلٍّ من المقاصد القرآنية والقِيم الحضارية... ومنه إجمالاً: أن الانتظام مُراد، وأمر، ومصلحة، ووسيلة، ومآل، ومعنى، وهو ما يستوعبه العلم المقاصدي القرآني والسُّني. ومنه أيضاً: أن الانتظام وعي، وفعل، وإنتاج مادي وروحي، ورُقِي، وتحسين، وتجميل، وتطهير، وهو ما يستغرقه علم القِيم الحضارية. وهذا التداخل هو مسألة نسبية واعتبارية تتفاوت بتفاوت الفهوم والأنظار، وتعدُّد المجالات، واختلاف الأمصار.

## رابعاً: مقصد التآلف البيئي، وإحياء قِيم الإنسان الحضارية

يعد التآلف البيئي مقصداً قرآنياً محتفى به في ثنايا منطوق القرآن ومفهومه، وقيمةً من قِيم حضارة الإنسان والعمران القائمة في منظومة القِيم بتداخلٍ مع قِيمٍ ومُثلٍ عدَّةٍ، مثل: قيمة الكرامة والجمال والصحة، وفضائل العدل والإحسان والحق والمعروف، وباعتبارات معرفية ومنهجية تتفاوت فيها الأفكار والأنظار، وتختلف مقاربتها باختلاف زوايا ذلك وسياقاته.

ويُعرَّف التآلف البيئي بأنه التفاعل بمقتضى حقيقة الأُلفة ومستلزماتها بين الإنسان وبيئة الطبيعة ومحيطها الأرضي الذي يعيش فيه تأثُّراً وتأثيراً. فالتفاعل في عالم البيئة بالأُلفة والتأليف والمؤَالفة بين الإنسان وبيئته هو عملية وجدانية شعورية، وميل فطري[١٥] متبادل بينهما، وتوطُّن على المرافقة والمراكمة، بما يخدم العمران، وينفع الإنسان، ويُفعِّل مقاصد القرآن في ذلك كله.

ويُعبِّر هذا التآلف البيئي عن الإرادة الطوعية الحرة للإنسان، الذي يحب بيئته، ويغار عليها، ويعمل لتطويرها وتحسينها، ونفي ما قد يُخِلُّ بها ويُفسِدها. وهو الموقف الإنساني

[١٥] الميل: نزوع فطري موروث يظهر لدى الفرد في صورة توجُّه تفضيلي واعٍ نفسي وسلوكي نحو أنشطة وموضوعات وأفكار تمثل غايته وموضوعه. مقال "الميول" في موقع الموسوعة العربية الإلكتروني: www.arab-ency.com

القِيمي الأخلاقي الإيماني من البيئة، على خلاف الموقف العدائي منها، الذي يرى أن البيئة في مقام عداء وحرب على الإنسان، وهو الموقف الذي يُعبَّر عنه بمقولات قهر الطبيعة، وغزو الفضاء، ومغالبة التحديات الموجودة في عالم البيئة، وغير ذلك من المصطلحات التي -وإن كانت لا تدل صراحة على الموقف العدائي، ونزعة الكراهة للبيئة- قد تشير إلى الموقف الذي يوصف في حدِّه الأدنى بأنه لا يرتكز على قاعدة التآلف مع البيئة، والاستجابة للميل الطبيعي تجاهها.

## ١. أوجه مقاصدية القرآن في التآلف مع البيئة:

لهذه المقاصدية شواهد كثيرة تُفهَم وتُستخلَص من مجموع النظر والتحقيق من مظان ذلك من النصوص والقِيم والأحكام وسياقاتها. ومن قبيل هذا التحقيق: تناسُب وجود الإنسان مع الوجود الطبيعي البيئي من حيث ملاءمة الوجود الطبيعي لحياة الإنسان واستمراره، وسدُّ حاجياته وطلباته، وتحقيق رغباته النفسية والوجدانية، وشعوره بالسعادة والمؤانسة، في بيئته الخاصة والعامة، وموطنه الأصل، ومواطنته[١٦] الفسيحة، وموضع تنقُّله، ومأوى حاله، ومستقر أوضاعه وأملاكه وأعماله.

ويكمن هذا التناسُب في مجموع مجالاته الفردية، والجماعية، والجسدية، والنفسية، والصحية، والغذائية، والمادية، والترفيهية؛ وفي العلوم، والفنون، والحضارة، والعمران. فكل ما في الكون من موجودات ومكتشفات يناسب الإنسان في الوضع الطبيعي الأصلي الابتدائي، ويلائم رغباته المشروعة بميزان العدل والمعروف والحق، خارج دائرة الهوى والظلم والمنكر والباطل.

---

[١٦] هي عبارة عن مجموعة من الحقوق والواجبات، يتمتع بها، ويلتزم بها في الوقت ذاته "كل طرف من أطراف هذه العلاقة." انظر:

- الرشيد، عماد الدين. **المواطنة**، حمص: نحو القمة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٥م، ص٦. و"الانتماء إلى الوطن... انتماء يتمتع فيه المواطن بالعضوية كاملة الأهلية على نحوٍ يتساوى فيه مع الآخرين مساواة كاملة في الحقوق والواجبات، وأمام القانون، من دون تمييز بينهم على أساس اللون، أو العرق، أو الدين، أو الفكر، أو الموقف المالي، أو الانتماء السياسي." انظر:

- الخشت، محمد عثمان. "تطور مفهوم المواطنة في الفكر السياسي الغربي"، **مجلة التسامح**، مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عدد٢٠، خريف ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٤٥.

وهذا التناسُب يكون بضربين: ضرب التناسُب الاضطراري الجِبِلّي الذي يمثل الوضع الخلقي للإنسان المناسب للوضع الخلقي الطبيعي؛ في: التراب، والهواء، والماء، والغذاء، والميل الفطري، والسكينة النفسية، وفيما يثبته العلم بتجدُّد دائم، وتدقيق متزايد، من القوانين والنظريات العلمية التي يتآخى فيها وجود الإنسان مع وجود الطبيعة من حيث طبيعة الخلق الإنساني وحقيقة الخلق الطبيعي، ومن حيث المشترك الترابي والمائي والهوائي بينهما.

ومقصد القرآن في هذا التناسُب هو مجموع ما يترتب عليه من الحقائق العلمية والمنتجات النافعة والمعالم العامة والخاصة، ومن تعمير الوجود والكون والحياة؛ بإقامة النظام، وتسخير الطبيعة، واستثمار البيئة مادياً ومعنوياً، وتقرير العيش المشترك والتعاون السلمي والمدني بين سائر مكونات الوجود الإنساني.

وما يُبنى على هذا التناسُب من الاستثمار والاستغلال والتعمير والتأثيث والتحسين والتجميل يمثل البُعْد الغائي للوجود العاجل والوجود الآجل، بما يُحقِّق بهجة منظر الطبيعة، ويجلب منفعة الناس جميعاً، في اتجاه إقامة عيشهم، وانتظام حالهم، وتقرير مصائرهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨).

ولذلك دُعِي الإنسان إلى اعتبار هذا التناسُب موضع التآلف والتعاون، وأرضية الإنجاز والتثمير؛ بجريان ذلك على وَفق القوانين والسنن المركّزة في الطبيعة والفطرة، وفي عالم الموجودات البيئية والإنسانية، التي كُلِّف الإنسان بالكشف عنها، واستغلالها، والانتفاع بها، وتوظيفها في تعمير الوجود، وعمارة الحضارة، وتحقيق المآل صلاحاً عاجلاً، وسعادةً آجلةً أبديةً. وبناءً على ذلك، يكون هذا التكليف والتسخير والتعمير أطراً توجيهية تربوية علمية، قررها القرآن غاياتٍ للإنسان، وقيماً للوجود، وسنناً في الطبيعة، ومعالمَ في الحضارة.

### ٢. الإخلال بالتناسُب حصادٌ مُرٌّ وثمرة خبيثة:

إحداث الخلل والاضطراب لنظام التناسُب الإنساني وانتظام الوجود الطبيعي، يعد مصادمة صريحة لمراد الخالق من الوجود والحياة والإنسان، على صعيد التناسُب والتآلف، والاستثمار والاستغلال، والانتفاع والاستحقاق في عالم الحياة الأُولى، ومقام الدار الآخرة.

ويعد أيضاً معارضة شديدة، لا لقِيم الحضارة فحسب، بل للإنسان نفسه وفطرته السوية التي فطره الله عليها؛ هذه الفطرة التي تأبى أن تُحشَر على خلاف ميلها الجبلي للآخر الطبيعي، وانتفاعها به، بما يقيم المعاش، ويدرأ الفساد، ويمنع الهرج والفتن في عالم الماديات، والأشياء، والنظم، والفنون، والعلوم.

ويعد هذا الصدام للمراد الإلهي والمصلحة الإنسانية والقِيم الحضارية فساداً عريضاً وفتنةً كبرى، بمقتضى ما يُدرِك المرء من اختلال التناسُب المفضي إلى فوات المطلوب، وحصول المنافي، وهجوم الأضرار بأنواعها المادية، في عالم الصحة، والغذاء، والتعليم، والترفيه، والمرافق، والسلع، والأشياء؛ وفي دوائر المعرفة، والفنون، والثقافة، والاعتقاد، والقِيم، والفضائل. وقد دلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ (الروم: ٤١).

وهو ما يشير إلى المعنى المقاصدي من جهة مصطلح "المفسدة" التي يجب درؤها، وبصيغة التعريف المستغرق لأنواعه وأفراده، ومجاله الطبيعي البري والبحري، ومن جهة بيان أسبابه (وذرائعه بالتعبير المقاصدي) التي أدَّت إليه... وهي كسب الإنسانية، ومباشرتها لمقدماته، واتخاذها لأسبابه، وتواطؤها مع هذا الفساد بمختلف أحواله وسياقاته، وبتعدُّد مجالاته ومؤسساته، وغير ذلك ممَّا يمثل منظومات فساد، ودوائر إفساد، ومساحات تضليل، وتغليط، وإحباط، وتثبيط.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) يشير إلى دخول الفساد في المقاصد القرآنية من جهة العدم، كما يُعبِّر بذلك الشاطبي وعلماء المقاصد؛ أي اعتبار الفساد داخلاً في النهي ووجوب الترك، وما يكون عليه، أو يؤول إليه من الثمر المُرِّ،

والحصاد الخبيث الذي يلزم تركه ودرؤه. فكُره الله له دليل على بُغضه والنهي عنه، ومناط كونه مُضِراً بالإنسان، والطبيعة، والحضارة، والعمران.

والفساد أيضاً مُصادِم لقِيم الانتفاع بالمدخرات والسنن، وحقيقة التناسُب واستثماره، ومعارضٌ لقِيم الحسن للكون وجماله، وجمال موجوداته، وأنعامه، وجباله، وبحاره، وأزهاره، وأنهاره.

وما تؤول إليه الطبيعة في أحيان كثيرة من الدمار والتشويه، هو بفعل الإنسان خارج دائرة الأديان والقِيم، وبشهواته المنوطة بأهوائه، وانعدام حسن الجمال والذوق، وضعف الوازع الخُلقي، أو انطفائه واندثاره؛ ما يجعل مشهد الحياة حافلاً بحصاد مُرٍّ، وثمر خبيث، وتنازُع، وتقاتُل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧)؛ فهو فعلُ نهيٍ يقتضي التحريم وفساد المنهي عنه، ولازِمُهُ درء مآلات الفساد من الثمرات المُرَّة والعقوبات الوخيمة، والأضرار المهلكة المدمرة لسير الانتظام الإنساني والطبيعي، ولما بينهما من الأُلفة والرفقة، والمنفعة والمصلحة.

ومن أوجه مقاصدية القرآن في تقرير التآلف الطبيعي احتفاء القرآن بصيغ التصريح، والإشارة، والتعليل، والإرشاد، والتحسين، والإصلاح... بالوجود الطبيعي في إحاطته بالوجود الإنساني، وتلبُّسه بمعاشه ومصالحه، وتآلفه مع فطرته وعقله وأحاسيسه، وتناغمه مع استحقاقاته ومكاسبه، وجريانه على كرامة الإنسان وحقوقه الضرورية والحاجية والتحسينية، وغير ذلك.[١٧]

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ (النحل: ٦)، فيشير إلى العلاقة الفطرية الطبيعية الوظيفية بين الإنسان والطبيعة والحضارة؛ إذ أوردت

[١٧] قال القرطبي: "قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال... وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتها، وقول الناس إذا رأوها هذه نَعَم فُلان؛ قاله السدي. ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمةً وضروعاً؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدّم الرواح على السراح لتكامل درها، وسرور النفس بها إذ ذاك، والله أعلم." انظر:

- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٧٤.

معنى الجمال والراحة بوصفهما أثراً يُسعِد هذا الإنسان في علاقته بهذه الطبيعة والموجودات الحيوانية تحديداً.

ولا شك في أن رغبة الجَمال والراحة والمتعة، وتحقيق الدفء والنفع، وترتيب الأثر، وتحصيل الثمر، وبناء العمارة الحضارية، وكسب العمران المادي والمعنوي والجمعي في دوائر العلوم والفنون، والصنائع والحرف، والمهارات والملكات، والنظم والمنظومات؛ كل ذلك وغيره يمثل منتوجاً مادياً ومعنوياً للأنعام، وسائر الموجودات الطبيعية والحياتية. فقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ (النحل: ٧) يشير إلى نقل البضائع والأشخاص والمعلومات والسلع والأشياء، بموجب هذه الناقلات والدواب، التي تعد نعمة وبهجة، ووسيلة لتخفيف الأعباء والأثقال.

ومن أوجه الأبعاد المقاصدية القرآنية في التآلف البيئي، الوجه المتعلق بالبيئة؛ إطاراً للإنجاز الإنساني، ومسرحاً للأعمال والصنائع والابتكارات، ووعاءً للمنتجات المادية والمعنوية والثقافية والمجتمعية وغيرها، ممَّا يفتقر إليها الناس في نظام معاشهم، ومقتضيات وجودهم. وما يفتقر إليه الناس يكون بمستوى ما يُحقِّق مراتب ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسيناتهم، ومصالحهم في مختلف أوضاع الدولة، وإمكانياتها، وتحدياتها، وهو ما يمثل موضع التفسير المقاصدي القرآني الذي يتناول هذه المراتب على صعيد البيئة والمدخرات الطبيعية والمنجزات الحضارية الخادمة لذلك كله.

ولا ينبغي أن يُنظَر إلى البيئة على أنها تجري في مجال ما هو تحسيني تكميلي يُدرَج ضمن مرتبة المقاصد التحسينية فحسب، بل تجري بمستوى مراتب الحاجي والضروري بحسب اعتبار ذلك وسياقه، وما يؤول إليه من حفظ الضروريات والحاجيات. فبيئة الغذاء والماء والهواء والدواء بيئة ضرورية في مجال ما هو ضروري، يتوقف عليه وجود الإنسان، وهي البيئة التي تمثلها التربة الطبيعية، والخدمة اللازمة، والظروف المواتية (علمياً، وسُننياً، وحضارياً) التي تقيم البيئة السوية المنتجة لما هو ضروري وحاجي وهكذا.

والقرآن يشير في نَظْمه الجامع إلى البيئة بالاعتبار الضروري والحاجي، ويشير إليها أيضاً بالاعتبار التحسيني الكمالي... وهو ما استقر في هذا النَّظْم من تنصيص على

مكونات الطبيعة الحيوانية والمائية والزراعية والمعدنية، وجعلها مُسخَّرات ومنافع للناس، ومحاصيل للحضارة والعمران بمقتضى ذلك التسخير، وتداعياته على مستوى تطوير الأبحاث، وتكثير المنتوجات، وتعمير الحياة بالمرافق والأدوات والوسائل المختلفة الخادمة لمظهر البهجة، وظاهرة السعادة، واستمرار العطاء، وانتشار الرخاء.

ولا شك في أن هذا الأمر يُعزِّز القدرات الإنسانية على تجاوز التحدي، ويفضي إلى المزيد من التقدُّم؛ لتسهيل المعاش، وتلطيف البيئة، وتحسين مظاهر الحياة والوجود؛ بالتآلف مع البيئة وحسن استثمارها، لا بخصومتها والرغبة في الانتصار عليها وغلبتها وقهرها، بما قد يُغذِّي حالة كراهيتها، والإضرار بها، والانتقام منها.

ومن النظر الفسيح في تآلف الإنسان مع بيئته، تآلفه مع كل ما يحيط به وبحياته من مختلف الأشياء المادية، مثل: المباني والمرافق، والألبسة والأغطية والأفرشة، وأثاث المنازل وأجهزة المكاتب، والعربات، والحدائق، والأفنية، والأبنية الدينية والثقافية وغيرها، ممَّا يعد من ضروريات الحياة ومستلزماتها، التي تتحقق فيها الأقدار العالية من التفاهم والتناغم، بما يختاره الناس ممَّا يُحقِّق راحتهم وانسجامهم، ويساعدهم على تحركهم ونشاطهم وأعمالهم، ويستجيب لمعتقداتهم وتمثلاتهم في الدين والعادة والعرف، ويُسهِم في رواج السلع، وتطور الاقتصاد، وعمارة الأسواق والأبراج والمدن والفِجاج.

### ٣. التدهور البيئي مُصادِمٌ لمقاصد القرآن، ومُفوِّت لمطلوب العمران:

للقرآن الكريم أحكام بيئية كلية وجزئية، ثابتة بنظرٍ فسيح لعموم القرآن وخصوصه، واستقراءٍ غير يسير لأبعاده الإنسانية والحضارية والطبيعية، وعناصر الجمال والذوق والحُسْن، المستخلصة من ذلك الاستقراء الذي هو أيضاً مُدرَك قرآني تُدرَك به الأحكام الكلية والمقاصدية القرآنية العظيمة.

وهذه الأحكام أيضاً تتعلق بالأفراد والأشخاص ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ (المدثر: ٤)، وتتعلق بالجماعات والهيئات والأحكام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ

بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ (المائدة: ٦).

ومعلوم أن هذه الأحكام تقوم على مقاصدها المركوزة فيها؛ فالأحكام مشروعة لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وهو ما يُؤسِّس لضربين من المقاصد؛ المقاصد الجزئية، والمقاصد الكلية، التي هي موضوع الطهارة -على سبيل التمثيل، وبوصفها ضرباً مُهِمّاً للبيئة- فيتعيَّن على الفرد المُكلَّف بالقرآن أن يكون نظيفاً في بدنه، وثوبه، ومجلسه، ومسكنه، وفنائه، وبستانه، ويتعيَّن على الجماعة المُكلَّفة بالقرآن أن تكون طاهرة على صعيدها الجمعي والمؤسسي، وفي الفضاءات العامة التي تُؤدَّى فيها مناشط الناس الاقتصادية والثقافية والرياضية... بمقتضى خطاب القرآن للجماعة بذلك، وبصيغ الجماعة الدالة على الفعل الجمعي المؤسس المنتظم، بموجب الإرشاد إلى الطهارة الجماعية والنظافة العمومية في مجال المادة والمعنى، وفي الديار، والإدارة، والمساجد، والمدارس، والمجتمع، والحياة العامة.

وما آلت إليه أحوال بيئية كثيرة في بلادنا وعالمنا، من حيث حجم التدهور والفوضى والتردي، وتزايده واستفحاله، ومن حيث ما يمثله من المخاطر الصحية والنفسية والسياحية والاقتصادية، ومن حيث السمعة السيئة والاستهجان الحضاري؛ فما آلت إليه هذه الأحوال يشير إلى ضعف الوعي بمقاصد القرآن البيئية العمرانية الجمالية، وقِلَّة الاهتمام العلمي والسلوكي بأحكام القرآن في البيئة والمحيط، وهو ما يمثل حالة فكرية ومنهجية وعملية تتسم بالاقتصار على أحكام القرآن في مجال العبادات والأسرة والاعتقاد، من دون توسيع الاهتمام بالقرآن، في أحكامه المتعلقة بالبيئة والحضارة والفنون والعمارة، وتنمية الإنسان، وتعزيز القِيم بأنواعها. وعلى هذا، فإن ما آلت إليه هذه الأوضاع البيئية مصادمةٌ صريحة لمقاصد القرآن في الحضارة والعمران، وتفويت لمنافع الإنسان على صعيد ذلك كله.

**خاتمة:**

تناول هذا البحث مستويات التواصُل بين مقاصد القرآن وقِيم الإنسان الحضارية، وعمل على تقرير المشتركات النظرية والعملية، وإقامة مشروعاته وآلياته ومساراته، تبعاً للتجدُّد غير المحصور فكرياً، وسياسياً، ومجتمعياً، وحقوقياً... وباتباع البرمجة المستمرة، والتدريب العملي، والملاحقة الدائمة للمنتج بأنواعه ومشكلاته، والمراكمة المنتظمة؛ كمّاً، ونوعاً، ومجالاً، وتأثيراً... وهو ما يلزم منه الوعي بذلك، والفعل بناءً على ذلك. ويُفضَّل اعتماد برامج عملية ذات خطط مُحدَّدة تعنى بتفعيل مقاصد القرآن في قِيم الإنسان الحضارية، (قيمة، أو أكثر تحديداً)، مثل: قيمة الوقت، والثروة، والحرية، والحوكمة، والأسرة، والطفولة، والعبادة، والعمارة... وربط ذلك بتجربة، أو مؤسسة، أو حالة، أو حقبة ما؛ فيؤتي الأداء البحثي أُكْله، ويُحقِّق إبداعاته.

فبين مقاصد القرآن وقِيم الإنسان الحضارية تداخُل وتواصُل من جهة المضامين والحقائق، لكلٍّ من هذه المقاصد وتلك القِيم، فيما يتعلق بالإنسان وأبعاده ووظائفه في تحقيق ذلك فهماً نظرياً، وأداءً سلوكياً، ومشروعاً حضارياً.

وهذه المقاصد تمثل قِيماً إنسانيةً، وتحقيقها يكون انطلاقاً من الوعي بالقرآن مصدرَ هدايةٍ وإرشاد وإمداد، ومن الوعي بجوانب الإنسان الخلقية، والتكريمية، والتكليفية، والوظيفية، والانتظامية، والبيئية.

وقد انتهى البحث إلى جملة من التوصيات والتساؤلات، يمكن إجمالها فيما يأتي:

- وصل المعرفة النظرية بواقع الحال، وبرامج التخطيط والتدريب وبناء الذات الواعية المدركة طبيعة هذا الوصل، وشدَّة تعقيده، ولزوم تفكيكه؛ ما يدرأ السطحية والعشوائية والدغمائية في الطرح، والتشخيص، والتحليل، والاستنتاج، والتوظيف، والتثمير.

- كيف يمكن ربط آفاق مقاصد القرآن في بناء العمران بفعالية الإنسان، ومنظومة قِيم التربية والسياسة والتنمية والتعارف المشترك، وبرامج الدول والشعوب والحركات والثورات والإصلاحات، وملاحظة فروق الأزمنة وتحديات المرحلة وتعقيد الراهن بعقدة

نفسية عامة ليس لها من دون الله كاشفة؟ ومتى يكون ذلك؟ وما الأسباب الموجبة له؟ وأين يمكن تحقيقه؟

- كيف يمكن الإنتاج بالمقاصد والقِيم، وبأدوات الإنتاج (مسارات الفهم والإفهام، ومناهج الحكم والحكمة)، وبإمكانيات الإنتاج مع تأمل تحدياته وتعقيداته؟

- الاهتداء بالنصوص والثوابت، وتهذيب النفوس والوقائع؛ للخلوص بالعالم من قِيمه المبخوسة، واسترجاع مقاصده المخطوفة، المخرَجة من أطرها الموضوعية المعرفية، وعمقها الحضاري الإنساني، وسياقها الحالي المعاوِد لافتكاك القِيم، وانتزاع المقاصد.

ولا شك في أن ذوي المروءة سينتصرون قِيماً ومقاصدَ؛ لأنهم مجبولون بالفطرة، ومعدلون بالخلق. أمَّا معاودو الظلم ومزاولو الجرم، في حق القِيم والحضارة والمقاصد والعمارة، فمآل فسادهم إلى زوال. وقد صدق عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١).